العرب والحضارة الانسانية

الدكتور محمد معروف الدواليبي

لقد استقر الرأي العلمي اليوم عند مؤرخي الحضارات القديمة على ان الحضارة الانسانية الام التي نشأت فيما قبل التاريخ انما هي حضارة « مثلث الحضارة القديمة » كما سماه جورج شفاينفورت Georges Schweinfurth ويعني به اليمن وحضرموت على راس المثلث ، ووادي النيل في مصر في احد ساقيه ، واراضي الرافدين في العراق في الساق الثاني ، وما بين هذين الساقين في بلاد الشام (1) في قاعدة المثلث .

كما استقر الراي العلمي على ان هذه الشعوب كلها :

ا ـ ترجع الى اصول عربية لا شك فيها .

ب ـ وانها نزحت تحت ضغط عوارض الطبيعة في جنوبي الجزيرة العربية عندما اشتد جفافها وضاقت عن اهلها .

ج ـ وان هذه الشعوب خرجت الى مناطق هجرتها متحضرة ومالكة لناصية الحضارة ، ولذلك تشابهت حضاراتها في اصولها .

د ـ بل جزم علماء الآثار اخيرا اعتمادا على دراساتهم العلمية في السنوات الاخيرة في البلاد العربية ، وذهبوا الى ابعد من ذلك وقالوا : استطاعت الابحاث الاثرية ان تعد خمس موجات منها ، وان تؤكد ان ءاخرها واقواها كانت موجة العرب المسلمين قبل اربعة عشر قرنا ، **وانه لا ريب قد سبق هذه الهجرات العربية التاريخية الخمس هجرات عربية قديمة اخرى قبل التاريخ : امتدت على افريقية الشمالية والبلقان وايطاليا واسبانيا وفرنسا وايرلندا وبلاد الشمال (2)**، بل ذهبت مجلة « اللسان العربي » في العدد الثالث منها الصادر في شهر آب من سنة 1965 ، وفي الصفحة 130 الى ما يدل على ان القرطاجيين الكنعانيين ـ البونيين ـ قد وصلوا الى البرازيل في خط هجرتهم القديمة في مطالع التاريخ ، وهذا ما قد اثبتته البحوث العلمية الحديثة : من وصول العرب الى امريكة في مطالع العهود التاريخية (3) .

والمشكلة التي اعترضت هذا الجزم هي :

ا ـ اذا كانت الحضارة الانسانية الام انما انطلقت من جزيرة العرب .

---

1) كلمة « الشام » تعني بلاد الشمال من شبه الجزيرة العربية ، وهي تشمل اليوم ما هو معروف بفلسطين والاردن وسوريا ولبنان .

2) « مجلة الحوليات الاثرية السورية » ، المجلد السابع سنة 1957 ، الصفحة 4 ، الدكتور سليم عبد الحق مدير الآثار ؛ وكتاب « الايتروسك في غربنا وفي اصولنا الفرنسية » لمؤلفه الفرنسي « هيليردو بارانتون » Les Etrusques en notre Occident et nos origines françaises . طبع باريس سنة 1946 ، المكتبة الشرقية والامريكية لصاحبها « ميزون نوف G. P. Maisonneuve الصفحة 1 ، وكتابنا « قلعة طروادة التاريخية » طبع بيروت سنة 1964 ، مكتبة لبنان ، الصفحات 54 ، 56 ، 61 ، 71 .

3) انظر كتابا « المدخل الى التاريخ العام للقانون » الطبعة الثانية ، طبع دار الفكر بدمشق سنة 1963 ، الصفحة 541 .

ب ـ واذا كانت كلمة « العرب » ومادتها كما جاءت في اللغة العبرانية السامية انما تدل فقط على الصحراء والجفاف والبدو (1) .

ج ـ واذا كانت الحضارة لا يمكن ان تنشأ في صحراء جافة ، فكيف والحال كما ذكرنا يمكن الجزم بنشوء الحضارة الانسانية الام في جزيرة العرب الصحراوية الجافة ؟ ، فان هذا مما يتنافى مع شروط الحضارة .

وللجواب على ذلك لابد من الاشارة الى البحوث العلمية الحديثة الجازمة التالية :

اولا ـ نظرية البحاثة « كيتاني » حول انواء جزيرة العرب فيما قبل التاريخ ، وانها كانت اجواء ممطرة ، وان ارضها كانت ممتلئة بالانهار .

ثانيا ـ معنى كلمة « العرب » ومادتها في اللغة العربية الفصحى المؤيدة لذلك .

ثالثا ـ بطلان مزاعم العبرانيين فيما سجلوه في كتب لغتهم من معنى لكلمة « العرب » ومادتها : من انها تعني الصحراء والجفاف والبدو .

رابعا ـ نصوص من التاريخ القديم الدالة على رطوبة الجزيرة العربية فيما قبل التاريخ .

خامسا ـ نصوص القرآن الكريم عن انواء الجزيرة الممطرة في عهد العرب البائدة ، وكثرة الانهار في اراضيها .

سادسا ـ واخيرا نصوص الحديث النبوي في ذلك ايضا .

نظرية البحاثة كيتاني Ceatani

لقد دلت البحوث والدراسات الحديثة التي قام بها السياح والعلماء عن بلاد العرب على ان تغيرا كبيرا قد طرأ على جوها ، وان هذا الجفاف الذي يكتنف هذه البلاد في ازماننا لم يكن على النحو الذي نعرفه في العصور التي سبقت الاسلام كثيرا (2) .

وكان للبحاثة « كيتاني Ceatani » الفضل في لفت انظار العلماء الى هذه الظاهرة الهامة : ظاهرة التغير الذي طرأ على جو بلاد العرب ، والجفاف الذي حل بها في اواخر الدورة الجليدية الرابعة الاخيرة .

ففي الوقت الذي كانت فيه معظم النواحي الاوربية وشمالي آسية تغطي الثلوج ارضها ، كانت جزيرة العرب ذات جو معتدل ، وامطار غزيرة ، واشجار وزروع .. ثم اخذ الجو يتغير في بلاد العرب ، ففقد الجو رطوبته ، وسارت البلاد فيها بصورة مستمرة وبطيئة نحو الجفاف منذ اكثر من اربعة عشر الف سنة ، فاثر ذلك بالطبع في حياة سكانها وفي حياة حيواناتها ونباتاتها : فانقرض ما لم يتمكن من تكييف نفسه مع المحيط الجديد ، وظهرت الحاجة الى الهجرات ، فكانت الهجرات التي نتحدث عنها الآن ، وخاصة بعد ان جفت انهار الجزيرة وتركت لنا آثارها وهي الاودية ، وقد كان بعضها انهارا عظيمة في وقت من الاوقات (3) .

وقد تصور « كيتاني » بلاد العرب في الدورة الجليدية الاخيرة جنة بقيت محافظة على بهجتها ونضارتها مدة طويلة ، وكانت سببا في رسم تلك الصورة البديعة في مخيلة كتاب التوراة عن « جنة عدن » ، وان جنة عدن المذكورة في العهد القديم هي هذه الجنة التي كانت في نظر « كيتاني » في داخل بلاد العرب (4) ، والتي يقول عنها في الجملة : انها بلاد كانت كثيرة الامطار ، وكثيرة الانهار ، وكثيرة الاشجار .

ويؤيد هذه البحوث العلمية ان كلمة « العرب » وجميع مادتها ومشتقاتها انما تدل :

ـ على المياه الكثيرة ، الصافية ، الشديدة الجريان .

ـ او على الانس وعلى الصفاء الملازمين للمياه الكثيرة الصافية .

وهكذا فاننا نورد فيما يلي موجزا عن هذه المعاني في معاجم اللغة العربية :

---

1) تاريخ العرب ، لجواد علي ، الجزء الاول طبع بغداد سنة 1951 ، الصفحة 173 ، وكذلك تاريخ العرب مطول ، فيليب حتي ، الجزء الاول ، طبع بيروت سنة 1958 ، الصفحة 53 .
2) تاريخ العرب لجواد علي ، الجزء الاول ، الصفحة 97 ، طبع بغداد سنة 1951 .
3) تاريخ العرب السابق ، الجزء الاول ، الصفحات 158 ـ 159 .
4) نفس المرجع السابق ، الصفحة 159 .

ـــ « العربة » النهر الشديد الجري ، وجمعها « عربات » . وما كان المكان ليصلح منزلا للقوم الا اذا كان فيه ماء ، ولذلك كثرت الامكنة التي حملت في جزيرة العرب اسم « عربة » مثل باحة اسماعيل في مكة ؛ فقد سميت « عربة » لوجود ماء زمزم فيها ، وهكذا لم تلبث صيغة الجمع لكلمة « عربة » اى عربات ان اصبحت علما فى اللغات العربية القديمة على مهد العرب فى جزيرتهم لكثرة المياه والانهار فيها ، والى هذا الاسم نسبوا وسموا عربا باسم بلدهم « العربات» ولا لمعنى « البداوة والجفاف والصحراء » كما نقل عن العبرانيين (1) .

ـــ و « العربات » سفن رواكد كانت على مياه دجلة .

ـــ و « العرب » الماء الكثير الصافي .

ـــ و « والأعراب » الذين يرتادون الكلأ ويتتبعون مساقط الغيث ومظان المياه ، لا مناطق الجفاف والصحراء .

ـــ و « التعريب » الاكثار من شرب الماء الصافي

ـــ و « عرب البئر » كثر ماؤها .

ـــ و « اعرب بحجته » اذا افصح بها حتى عبرت عما يريد ، وكانها اصبحت كالماء الصافي الذي لا يخفي ما فيه .

ـــ و « امراة عروب » اى متحببة الى زوجها ، وذلك لصفاء مزاجها كما هو شان الماء الصافي .

ـــ و « عربت المعدة » اى فسدت وسالت كالماء

وان معاني هذه المفردات تدل بأجمعها على ان لكلمة « العرب » ومشتقاتها ومسمياتها صلة بالماء الكثير الصافي ، وليس من المعقول ان يطلق العرب على هذه المعاني كلها كلمة لا تدل مادتها في اللغات السامية الا على الجفاف والصحراء كما زعم العبرانيون !!

بطلان مزاعم العبرانيين

لقد زعم المستشرقون اليهود بأن معنى كلمة « العرب » ومادتها فى اللغة العبرانية انما يعني فى الاصل « الجفاف والصحراء والبدو » (2) ، وان كلمة « عرب » ماخوذة من مادة « عرب » بمعنى « امحل او اجدب » فى كثير من اللغات السامية ، وان صيغة « عرابة او عربة » العبرانية استعملت اسما للارض الفقراء (3) .

ولنا على ما وصل اليه المستشرقن فى مصادرهم اليهودية المزعومة ملاحظات اساسية اهمها ما يلي :

اولا ـ اهمال هؤلاء الباحثين لما جاء في اهم اللغات السامية اليوم وهي اللغة العربية والتي يحمل اصحابها وحدهم اسم « العرب » ، وهو اهمال غير مغتفر ولا يدل على حسن قصد ، خاصة وان معنى المادة فى اللغة العربية جاء مخالفا تمام المخالفة لما جاء في اللغة العبرانية ، وان موضوع المخالفة متعلق ببلاد اللغة العربية ، ولا يجوز الحكم على معاني كلماتها الاساسية بمعان مستوردة من لغة غير عربية !

ثانيا ـ ان هذا الخلاف الكبير المتناقض فيما بين اللغتين العبرانية والعربية فى معنى كلمة « عرب » يوجب على الاقل لفت النظر اليه ، وايجاب الاخذ بالمعنى الثابت عند اهل اللغة العربية لا عند اصحاب اللغة غير العربية ، ثم متابعة البحث لمعرفة السبب فى هذا التغاير المتناقض ، ما دامت اللغتان ساميتين، والكلمة كلمة اساسية فى اللغة العربية وفى تاريخها وتاريخ بلادها ، وهذا ما لم يفعلوه بكل اسف !

ثالثا ـ اهمالهم الاخبار التي وردت فى كتب اليونان والرومان وغيرها من النصوص القديمة ، وكذلك ما نقل عن المصريين القدماء (4) ، وكلها كانت تقول بوجود انهار طويلة فى بلاد العرب، وبوجود اخشاب ضخمة فيها ، وبانها « ارض الله » كما سماها المصريون لوفرة خيراتها ونتاج اشجارها من البهار والتوابل ، رغم ان كتب الاخبار القديمة فى ذلك متوفرة

---

1) مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ، طه باقر 172 ـ 174 .
2) تاريخ العرب السابق ، لجواد علي ، الجزء الاول ، الصفحة 173 ، وكذلك تاريخ العرب مطول ، لفيليب حتي ، الجزء الاول ، الصفحة 53 ، طبع بيروت سنة 1958 .
3) تاريخ العرب السابق ، الجزء الاول ، الصفحات، الجزء الثاني الصفحة 189 ، طبع بغداد سنة 1956
4) تاريخ العرب السابق ، لجواد علي ، الجزء الاو ، الصفحات 98 ، 102 ، وكذلك مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ، الجزء الثاني السابق ، الصفحة 189 .

للباحثين كما سوف نعرضه بايجاز في البحث الخاص بها بعد هذا البحث .

رابعا ـ عدم استعراض نصوص العهد القديم « التوراة » فيما يتعلق بالدلالة على مفهوم كلمة «عربة» فيها وهي كثيرة . وكلها تنادي نداء صريحا بان كلمة « عربة » ومادتها انما تدل حصرا على «الارض الجيدة ذات الامطار والعيون والانهار ، وانها تفيض لبنا وعسلا ، في ارض الكنعانيين الساكنين في ارض العربة (1) » . وقد استخرجتها كلها من اسفار العهد القديم فبلغت العشرات (2) ، وهذا ما يبطل ما جاء في كتب اللغة العبرانية من ان كلمة « عربة » انما تدل على « الصحراء والجفاف والبدو والجدب والارض القفراء !! » اذ كيف يجوز للتوراة ان تصف مساكن الكنعانيين في « العربة » بالارض الجيدة ذات الامطار والانهار والعيون واللبن والعسل اذا كانت كلمة «عربة» في العبرانية لا تدل الا على الصحراء والجفاف والجدب ؟ ! . . اللهم ان هذا لبهتان عظيم !! وقد ابى الله الا ان يفضحه وان يظهر بان معنى الكلمة في اللغة العبرية هو نفسه في اللغة العربية .

نصوص التاريخ القديم

واذا ثبت لدينا فيما تقدم من نظرية « كيتاني » العلمية ، ومن نصوص التوراة في « العهد القديم » ان معنى كلمة « عرب » ومادتها انما تدل على الماء الصافي الكثير ، والارض الجيدة الكثيرة الامطار والانهار ، وذلك تماما مثل ما جاء في معنى هذه المادة في اللغة العربية ، وعلى خلاف ما جاء في اللغة العبرانية المجردة من اي دليل علمي ، فلنستمع الآن الى نصوص التاريخ القديم من عهد الفراعنة واليونان والرومان ، وكلها تدل على بقايا رطوبة الجزيرة العربية حينئذ مما هو معروف قبل التاريخ ، على الرغم من اشتداد حلقات زحف الجفاف على الجزيرة الذي كان قد بدا قبل ذلك بآلاف السنين ، ثم ما زالت حلقات تشتد يوما بعد يوم .

فلقد جاء في النصوص المصرية القديمة ما يثبت وجود اخشاب ضخمة في شبه جزيرة العرب، وان المنطقة الواقعة بين « العلا » و « معون » او « معان » من المناطق الصحراوية في الوقت الحاضر من اراضي ثمود قديما ، قد كانت من مناطق الغابات المكتظة بالاشجار ، ولعل ذلك كله هو الذي حمل المصريين القدماء على ان لا يسموا بلاد العرب باسمها الخاص بها ، وانما سموها في كتاباتهم بـ « ارض الله» ، ووصفوها بنتاج اشجارها من البهار والتوابل (3) .

اما الروايات اليونانية والرومانية القديمة فكانت تقول صراحة بوجود انهار طويلة في بلاد العرب (4) .

ـ فان هيرودوت (ابا التاريخ وقد زار بلاد العرب بنفسه) قد ذكر خبر نهر في بلاد العرب دعاه « كورس » ، وقال عنه انه من الانهر العظيمة ، وانه كان يصب في البحر الاحمر ، وان ملك العرب قد كان عمل على جلب المياه من هذا النهر العظيم بثلاثة انابيب من جلود الثيران وغيرها من الحيوانات ، تمتد الى الصحراء على مسيرة اثني عشر يوما من النهر ، فتصب في مواضيع منقورة تستعمل لخزن المياه .

ـ وكذلك ذكر « بطليموس » اسم نهر عظيم سماه « لار Lar » وقال انه ينبع من منطقة «نجران» ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية مخترقا بلاد العرب حتى يصب في الخليج الفارسي .

وهكذا فقد تضافرت ايضا الاخبار القديمة لتدعيم حقيقة ما قد كانت عليه بلاد العرب من انواء رطبة وامطار وانهار ، كما جاءت في معنى ذلك نظرية كيتاني ، وكما دعمها المعنى اللغوي لكلمة « عرب » ومادتها في اللغة العربية واللغة العبرانية كما اثبتنا تحقيقه اعلاه .

في نصوص القرآن والسنة

والآن ناتي في آخر المطاف من هذا البحث السريع الجديد الى معجزة الاخبار في ذلك ، وهي

---

1) انظر سفر الخروج ، الاصحاح الثالث ، الفقرتين 7 ـ 8 ،وكذلك سفر التثنية ، الاصحاح الحادي عشر ، الفقرة الثلاثين .

2) انظر كتابي « المدخل الى التاريخ العام للقانون » ، الطبعة الثانية سنة 1963 ، الصفحة 578 .

3) تاريخ العرب ، لجواد علي ، الجزء الاول ، الصفحتان 102 ، 105 ، وكذلك مقدمة في تاريخ الحضارات ، لطه باقر ، الجزء الثاني ، الصفحة92 .

4) تاريخ العرب السابق ، الجزء الاول ، الصفحة 189 .

نصوص القرءار والسنة التي لا تدع بعد ذلك شكا فيما نقلناه عن انواء جزيرة العرب فيما قبل التاريخ ، وان جزيرة العرب كانت ذات انواء رطبة ، وسماء كثيرة الامطار ، وارض كثيرة الانهار .

والمعجزة في هذه النصوص انها تدعم منذ نحو اربعة عشر قرنا وبكل صراحة تلك البحوث والاتجاهات التي انتجتها الدراسات العلمية الحديثة ، تلك الدراسات التي لم يكن من الممكن لها ان تقوم في تلك العصور ، ومن قبل امة امية حين نزل عليها القرءان المعجز في كل شيء .

اما نصوص القراءن الكريم فقد قاربت نحوا من اربعين آية ، وجاءت كلها في معرض التذكير للعرب في عهد الرسول العربي العظيم محمد عليه الصلاة والسلام ، والدعوة الى الاتعاظ بمن تقدمهم من الاقوام اصحاب المياه والجنان والعمران والقوة والآثار:

— من قوم عاد واهل سبأ في اليمن وما حولها من جنوبي شبه الجزيرة العربية ، وخاصة قوم عاد من العرب البائدة ، والذين كانوا اول الخلفاء لقوم نوح بعد كارثة الطوفان (سورة الاعراف ، الآية 69) .

— وكذلك قوم ثمود في شمال شبه جزيرة العرب ومطالع بلاد الشام ، والذين كانوا اول الخلفاء لقوم عاد بعد ان ابادهم الله (سورة الاعراف ، الآيات 72 — 77)

ونكتفي هنا وفي هذا البحث الوجيز بنقل آية واحدة من القرءان الكريم ، وهي الآية السادسة من سورة الانعام ، اذ فيها كل ما نريده من صراحة القول ، وقطعية الدليل ، حينما خاطب العرب في عهد ظهور الرسالة الاسلامية ، وتذكيرا لهم بمن قبلهم من الاجداد في سالف الازمان حين عصوا الله فاهلكهم ، فقال في ذلك : « الم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن، مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم ، **وارسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الانهار تجري من تحتهم** ، فاهلكناهم بذنوبهم وانشانا من بعدهم قرنا آخرين » .

ففي ذلك صراحة ليس بعدها صراحة في وجود الاجواء الممطرة والانهار لدى سكان شبه جزيرة العرب القدماء ، كما قد برهن عليه البحاثة كيتاني بوسائل العلم الحديث ، مما قد تغير مع هلاك اولئك الاقوام ، وهو كما يبدو من اعظم اسباب التمكين لاولئك الاقوام في الارض العربية ، وللحضارة الانسانية الام الاولى فيها مما لم يكن للعرب فيما بعد ، وخاصة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، حيث كان الجفاف قد استولى على الجزيرة العربية في معظمها .

ويتفق مع نص الآية السابقة من كثرة الامطار والانهار قديما في شبه جزيره العرب ، ما جاء في صحيح مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه انه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض ، وحتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد احدا يقبلها منه ، **وحتى تعود ارض العرب مروجا وانهارا** » . ففي قوله عليه الصلاة والسلام « حتى تعود » صراحة جازمة ايضا بما كان في جزيرة العرب قديما من مروج وانهار لكثرة الامطار، وانها ستعود مروجا وانهارا .

وقد نقل هذا الحديث ايضا الامام احمد في مسنده مبتدئا بلفظ : « لا تقوم الساعة حتى تعود ارض العرب مروجا وانهارا ... » ، وكذلك رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ، وكذلك صاحب كنز العمال .

الخاتمة

وبالاشارة الى اصول هذين المبحثين الاخيرين من نصوص القرءان والسنة الكثيرة مما لا يتسع المقام لاكثر منه ، تكون :

اولا — قد اتينا على آخر الادلة في هذه الدراسة الجديدة حول معنى كلمة « العرب » وجميع مادتها ، وانها الماء الكثير الصافي خلافا لما زعمه العبرانيون في معاجمهم من ان مادة الكلمة تعني الصحراء والجفاف كما نقله عنهم المستشرقون اليهود ، وكما اثبتنا كذبه بنصوص توراتهم المعروف « بالعهد القديم » .

ثانيا — تكون ايضا قد قضينا على المشكلة التي اثارها المستشرقون اليهود امام الجزم العلمي بان الحضارة الانسانية الام انما نشأت من جزيرة العرب ، ومنها انتشرت في بلاد الرافدين في العراق ، وفي وادي النيل في مصر على ايدي الهجرات العربية القديمة فيما قبل التاريخ وبعدها ، من عهد قوم عاد « التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا (قطعوا) الصخر بالواد ، وفرعون ذي الاوتاد (الاهرامات) » .

ونرجو ان تكون كلمتنا هذه الوجيزة في بحثها خير باعث للقارىء العربي الكريم على العمل لتصحيح التاريخ وتنقيته من كثير من اغلاط المستشرقين اليهود الذين كان معظمهم حربا ثقافية علينا ، قبل ان تكون صهيونية اليوم حربا علينا سياسيا واستعماريا .